

أحاديث رمضان ١٤٢٥ هـ - ومضات ولقطات إيمانية - الدرس (١٤-٦٤) : التخيير والتسيير
لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: ٢٠٠٤-١٠-٢١

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على سيدنا محمد الصادق الوعد الأمين.

ما هي عقيدة الجبر؟ :

أيها الأخوة الكرام، في سورة الأنعام آية، قال تعالى:

(سَيَقُولُ الَّذِينَ أَشْرَكُوا)

[سورة الأنعام الآية: ١٤٨]

هذه مقولة المشركين:

(لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَشْرَكْنَا وَلَا آبَاؤُنَا وَلَا حَرَمْنَا مِنْ شَيْءٍ كَذَلِكَ كَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ)

[سورة الأنعام الآية: ١٤٨]

أين هذا الكلام؟ كله كذب:

(كَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ حَتَّىٰ ذَاقُوا بَاسَنَا
قُلْ هَلْ عِنْدَكُمْ مِنْ عِلْمٍ فَتُخْرِجُوهُ لَنَا إِنْ
تَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنْ أَنْتُمْ إِلَّا تَخْرُصُونَ)

[سورة الأنعام الآية: ١٤٨]

أخوتنا الكرام، ما من عقيدة شلت
المسلمين كعقيدة الجبر، هم قاعدون لا
يتحركون، وكأنهم يتوهمون أن الله قدر
عليهم ما هم فيه، قال تعالى:



عندما تعتقد أنك مسير فالحياة لا معنى لها

(قُلْ إِنَّ اللَّهَ قَادِرٌ عَلَىٰ أَنْ يُنَزِّلَ آيَةً وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ)

[سورة الأنعام الآية: ٣٧]

(كَذَلِكَ كَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ حَتَّىٰ ذَاقُوا بَاسَنَا)

[سورة الأنعام الآية: ١٤٨]

في اللحظة التي تتوهم أن الله أجبرك على كل أفعالك، وأن الله لا رأي لك فيه إطلاقاً، وأنت مسير،
ولست مختياراً، اعتقد أن الحياة لا معنى لها، والتكليف لا معنى له، وحمل الأمانة لا معنى له،
والتواب والعقاب تعطلاً، والجنة والنار لا معنى لهما إطلاقاً، وألغي الدين كله، إذا صحت عقيدة
المرء صح عمله، وإذا فسدت عقيدته فسد عمله، وهناك كلمات كثيرة جداً يقولها العامة، ما أنزل الله
بها من سلطان؛ إنها الكفر بعينه.

لم أقام عمر على إنسان شارب الخمر الحد مرتين؟ :



بل حينما جيء لسيدنا عمر بإنسان شارب للخمر، قال: أقيموا عليه الحد، قال: والله يا أمير المؤمنين، إن الله قدر علي ذلك، فقال: أقيموا عليه الحد مرتين؛ مرة لأنه شرب الخمر، ومرة لأنه افترى على الله. ما لم تكن مخيراً فلست مسؤولاً، المسؤولية لا تتحقق إلا إذا كنت مخيراً، والتخيير يثمن عملك، يعطي عملك قيمة، قال تعالى:

(إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا)

[سورة الإنسان الآية: ٣]

(وَلِكُلِّ وُجْهَةٌ هُوَ مُوَلِّيَهَا فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ)

[سورة البقرة الآية: ١٤٨]

(وَلِكُلِّ دَرَجَاتٍ مِمَّا عَمِلُوا)

[سورة الأنعام الآية: ١٣٢]

الآيات لا تعد ولا تحصى، قال تعالى:

(فَمَنْ شَاءَ فَلْيُؤْمِنْ وَمَنْ شَاءَ فَلْيُكْفُرْ)

[سورة الكهف الآية: ٢٩]

يجب أن تعلم هذه الحقيقة :

لكن -أيها الأخوة الكرام- لا بد من توضيح حقيقة: أن في القرآن آيات محكمات، وفي القرآن آيات متشابهات، فالمتشابهات تشبه الاختيار من جهة، والجبر من جهة ثانية، فأية آية في كتاب الله يشم منها رائحة الجبر، فهذه تحمل على المحكمات، الآيات المتشابهات مهما كثرت، تحمل على الآيات المحكمات مهما قلت بالضبط، هذه قاعدة أصولية.

إذا قال الله عز وجل:

(يُضِلُّ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ)

[سورة النحل الآية: ٩٣]

هذه الآية يجب أن تحمل على قوله
تعالى:

(فَمَنْ شَاءَ فَلْيُؤْمِنْ وَمَنْ شَاءَ فَلْيُكْفُرْ)

[سورة الكهف الآية: ٢٩]

أي: هذا الإضلال الجزائي المبني على
ضلال اختياري، قال تعالى:

(فَلَمَّا زَاغُوا أَزَاغَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ)

[سورة الصف الآية: ٥]

طالب في الجامعة ما داوم، ولا قدم

امتحاناً، ولا اشترى كتباً، وما استجاب لعشرة إنذارات لإدارة الجامعة، بعد كل هذه المحاولات
اليائسة في إقناعه أن يعود للدراسة، ولنيل الشهادات، صدر قرار بترقيته قيده، هذا القرار تجسيد
لرغبته، زاغوا فأزاغ الله قلوبهم، اختاروا الضلال فأضلهم الله بحسب اختيارهم، الآيات التي يشم
منها رائحة الجبر مهما كثرت، تحمل على الآيات المحكمة التي تؤكد أن الإنسان مخير.



من اختار الضلال يضلّه الله

هل الإنسان مخير أم مسير؟ :



الأمر والنهي في القرآن دليل أنك مخير

هذه الآية -أيها الأخوة الكرام- يقول
عنها علماء التفسير: هي أصل في أن
الإنسان مخير، قال تعالى:

(سَيَقُولُ الَّذِينَ أَشْرَكُوا لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا
أَشْرَكْنَا وَلَا آبَاؤُنَا وَلَا حَرَمْنَا مِنْ شَيْءٍ
كَذَلِكَ كَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ)

[سورة الأنعام الآية: ١٤٨]

هذا الكلام كذب، قال تعالى:

(كَذَلِكَ كَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ حَتَّىٰ دَاخُوا بِأَسْنَانِهِمْ هَلْ عِنْدَكُمْ مِنْ عِلْمٍ فَتُخْرِجُوهُ لَنَا إِنْ تَتَّبِعُونَ إِلَّا
الظَّنَّ وَإِنْ أَنْتُمْ إِلَّا تَخْرُصُونَ)

[سورة الأنعام الآية: ١٤٨]

الإنسان مخير فيما كلف، ولوجود الأمر والنهي في القرآن الكريم، معنى ذلك: أنك مخير لمجرد
وجود الأمر والنهي في القرآن الكريم، معنى ذلك: أنك مخير، ولا يعقل أن تكون مسيراً، وأن
يأمرك الله بأمر أو ينهك عن شيء، الأمر ليس له معنى، والنهي ليس له معنى، ولكنك لست مخيراً
في أمك وأبيك، هل اخترتهما؟ أبداً.

قال لي أحدهم: والدتي متعبة جداً، قلت له: طلقها، قال: كيف؟ قلت له: هذا قدرك، أنت مسير، أمك وأبوك وبلدتك وعصرك، وكونك ذكراً أو أنثى، وقدراتك العامة هذه ليس لك فيها اختيار، ولكن اعتقد اعتقاداً جازماً أنها لصالحك، يعبر عن هذا بقول الإمام الغزالي: ليس في الإمكان أبدع مما كان.

ليس في إمكانك أبدع مما أعطاك فيما سيرك به، وحينما يأتي يوم القيامة، ويكشف الله لك حكمة ما ساقه إليك، لماذا عشت في السبعينيات، ولم تكن في العشرينات؟ لماذا كنت في الشرق الأوسط، ولم تكن في شيكاغو مثلاً؟ لماذا جننت من أم وأب مسلمين ولم تكن من أم وأب وثنيين فرضاً؟



أنت لا تختار والديك وهذه مما أنت مسير فيه

حينما يكشف الله لك يوم القيامة الحكمة من هذه الأشياء التي قدرها لك، ينبغي أن تنوب كالشمعة شكرًا لله، على أنه أعطاك أنسب شيء لصالح إيمانك، وسعادتك الأبدية، لذلك: إذا أجبر الله عباده على الطاعة سقط الثواب، ولو أجبرهم على المعصية سقط العقاب، ولو تركهم هملاً لكان عجزاً في القدرة:

إن الله أمر عباده تخييراً، ونهاهم تحذيراً، وكلف يسيراً، ولم يكلف عسيراً، وأعطى على القليل كثيراً.

أخطر موضوع في العقيدة: موضوع ما إذا كان الإنسان مخيراً أو مسيراً؛ مسير فيما تكلمت ، ومخير فيما كلفت به.

دقق في هذا المثل :



حين تخترق القانون تفقد خيارك

ولكن الآن بالضبط دققوا في هذا المثل: تركب مركبة، والقيادة بيدك، أنت حر في قيادتها، والإشارة حمراء، وأنت مخير أن تلتزم بالقانون، أو أن تخترق القانون، أنت حينما تلتزم بالقانون تبقى مخيراً، أما حينما تخترق القانون تفقد

التخيير والتسيير

اختيارك، لست مخيراً في قبول المخالفة أو عدم قبولها، لو أن المخالفة سحب الإجازة، أو حجز السيارة، أو إيداعك في السجن، أنت حينما اخترت خرق القانون فقدت اختيارك. الإنسان في الدنيا حينما يختار أن يعصي الله عز وجل ، الآن يسوق الله بلية وتأديباً وعقوبة، ليس الإنسان مخيراً في قبولها أو رفضها، إذاً: أنت مخير في قضايا كبرى في حياتك هي لصالحك، ثم إنك مخير فيما كلفت، وبعد أن تكلف وتخير، إما أن تبقى مخيراً بطاعتك لله، وإما أن تفقد اختيارك حينما تختار أن تعصي الله، عندئذ:
إذا أراد ربك إنفاذ أمر، أخذ من كل ذي لب لبه.
مع الله عز وجل لا ينفع الذكاء أبداً:
ولا ينفع ذا الجد منك الجد.

الإيمان والكفر .

قضية الاختيار والتسيير من أخطر قضايا العقيدة.
يقول أحدهم: قال تعالى:

(فَمَنْ شَاءَ فَلْيُؤْمِنْ وَمَنْ شَاءَ فَلْيُكْفِرْ)

[سورة الكهف الآية: ٢٩]

لكن:

(وَمَا تَشَاءُونَ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ)

[سورة الإنسان الآية: ٣٠]

أين اختيار الإنسان؟ أقول له: لقد ربط الله مشيئتك بمشيئته ربط فضل لا ربط جبر، لولا أن الله خلقك مخيراً، وشاء لك أن تكون مخيراً، واخترت الخير، ونعمت بالجنة، لولا أن الله شاء لك أن تكون ذا مشيئة، واستعملت المشيئة لصالحك، وكانت سبب دخول الجنة لما كانت.
الله عز وجل ربط كونك مختاراً، بأن الله من كرمه شاء لك أن تكون مخيراً، ليس هذا الربط ربط جبر، بل هو ربط فضل، فرق دقيق جداً، مثلاً:
قال تعالى:

(وَلَوْ شِئْنَا لَآتَيْنَا كُلَّ نَفْسٍ هُدَاهَا وَلَكِنْ حَقَّ الْقَوْلُ مِنِّي)

[سورة السجدة الآية: ١٣]

يعني يا عبادي، إذا زعمتم، إذا توهتم: أنني أجبركم على المعاصي والآثام فأنتم واهمون، قال تعالى:

(وَإِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً قَالُوا وَجَدْنَا عَلَيْهَا آبَاءَنَا وَاللَّهُ أَمَرَنَا بِهَا قُلْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاءِ أَتَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ)

[سورة الأعراف الآية: ٢٨]

إذا توهمتم وزعمتم أنني أجبركم على المعاصي، لا، لو كنت مجبركم على شيء، لما أجبرتكم إلا على الهدى، ولكن الهدى الذي تجبرون عليه لا يسعدكم، لذلك:

(لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ)

[سورة البقرة الآية: ٢٥٦]

لو أن الهدى الذي تجبرون عليه يسعدكم، لأجبرتكم على الهدى، هذا معنى ولو شئنا إجبار هويتكم، ولو شئنا إلغاء أمانتكم، إلغاء تكليفكم، إلغاء اختياركم، وأجبرناكم على شيء، لما أجبرناكم إلا على الهدى.

إذًا: عندما تصح عقيدتك بحسن ظنك بالله، وحينما يحسن ظنك تكون قد عبدت الله.

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ:

((قَالَ رَسُولُ اللَّهِ -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-: مِنْ حُسْنِ إِسْلَامِ الْمَرْءِ: تَرْكُهُ مَا لَا يَعْنِيهِ))

[أخرجه الترمذي في سننه، ومالك في الموطأ]

ولكن حسن الظن بالله ثمن الجنة، وغير المؤمنين يظنون بالله غير الحق ظن الجاهلية، إساءة الظن بالله أحد أكبر المشكلات التي تعترض المؤمن في حياته.

خاتمة القول :

فقضية أن الإنسان مخير، قضية مقطوع بها، تؤيدها آيات كثيرة، وأحاديث كثيرة، ولكن هناك آيات يشم منها رائحة الجبر، وهي آيات متشابهات، الآيات المتشابهات مهما كثرت، تحمل على الآيات المحكمات مهما قلّت.

والحمد لله رب العالمين